

العبّارة الأخيرة

حمادة حامد محمود نور الدين

كانت العبّارة الأخيرة تغادر ضفة «الكرنك» عند منتصف الليل تماماً، لا قبل ذلك بدقيقة ولا بعدها. لم تكن مدرجةً في أيّ جدول رسمي، ولم يكن لها رقمٌ أو ملّاح معروف. وكان الصيادون العجائز يقولون إنّ من ركبها مرةً لم يعد كما كان.

في تلك الليلة، وصل إلى المرسى شابٌّ في الثلاثين اسمه عادل، يحمل حقيبة سفرٍ صغيرة وعينين متعبتين. كان قد فقد عمله في المدينة، وبيت أهله بيع لسداد دين، وكان في جيبه ثمن تذكرة قطارٍ واحدة إلى مدينةٍ لا يعرف فيها أحداً. وصل متأخراً ساعتين عن القطار، فوقف ينظر إلى النيل الأسود يلمع بضوء القمر، وقال لنفسه: «حتى الماء يمرّ وأنا واقف.»

جاءه صوتٌ من خلفه: «العبّارة بعد خمس دقائق يا بنيّ.»

التفت، فرأى عجوزاً نحيلاً في جلبابٍ رمادي يجلس على حبلٍ ملفوف، ويصلح بإبرةٍ كبيرة شبكةً قديمة. قال عادل: «أيّ عبّارة؟ لا أرى في الماء إلا القمر.»

ابتسم العجوز: «هي هناك. لكنّك لا تراها لأنّك لا تفكّر في العبور. من يفكّر في الوصول فقط لا يرى العبّارات.»

وكان على حقّ. بعد دقائق، ظهر من بين الضباب مركبٌ خشبيٌّ عتيق، له فانوسان أحمران في مقدّمته، يمخر الماء بلا صوت. رسا على الدكّة، وأُنزل لوحٌ رقيق. وصعد عادل، دون أن يدري كيف قرّر، بعد العجوز.

كان على العبّارة ركّابٌ قليلون. امرأةٌ في السبعين تمسك بقفصٍ فيه عصفور، وطفلٌ ينام على كتف أبيه، وشابٌّ يرتدي زيّ جندي ويحدّق في الماء، ورجلٌ ثقيل الجسم يتصبّب عرقاً رغم البرد. جلسوا جميعاً صامتين، وكان الصمت دافئاً، كأنهم متفقون عليه من قبل.

قال العجوز، وقد تولّى الدفّة دون أن ينتبه عادل: «هذه عبّارة المترددين. تركب كلّ ليلةٍ من هو واقفٌ بين شاطئين، ولا يعرف إلى أيّهما يعود.»

نظر عادل حوله، فرأى أنّ ماء النهر تحت المركب ليس أسود كما ظنّ. كان فيه نجومٌ كاملة تسبح في العمق، وأسماكٌ فضيّة تتبع العبّارة كحرّاسٍ صغار. وشعر بأنّ الليل، لأول مرّة منذ شهور، لا يضغط على صدره، بل يحمله كما يحمل الماء الخشب.

سأله الطفل الذي استيقظ على كتف أبيه، بصوتٍ ناعس: «هل نحن ذاهبون إلى الجنة؟» ضحك الملّاح بحنان وقال: «لا يا صغيري. نحن ذاهبون إلى الصباح، وهو أقرب مما تظنّ.»

«وإلى أين تأخذهم؟»

«إلى الشاطئ الذي يحتاجون إليه. ليس الذي يريدونه.»

عندما وصلت العبّارة إلى منتصف النهر، توقّفت بلا سبب. رفع القمر وجهه فوقهم كأنه يستمع. قال الملّاح: «في وسط النيل، يقول كلّ راكبٍ جملةً واحدة. جملةً صادقة، وإلا بقيت العبّارة واقفة.»

ضحك الرجل الثقيل بتوتّر: «وما الجملة؟»

«ما تخاف أن تقوله لنفسك.»

بدأت المرأة العجوز، وكانت تمسح القفص بكمّها: «أنا لا أحتاج هذا العصفور. إنّه يذكّرني بابني الذي هاجر. أحتفظ به لأنّني لو أطلقته، أعرف أنّ الابن لن يعود.» وبكت بهدوء، وفتحت القفص، فطار العصفور فوق الماء ثم عاد ووقف على كتفها. ضحكت من بين دموعها.

ثم تكلّم الجندي: «أنا لا أريد العودة إلى الوحدة. أخاف من الحرب التي انتهت، ومن السلام الذي بدأ.» وتكلّم الأب النائم الطفل: «أنا أكذب على ابني كلّ يوم، وأقول له إنّ كلّ شيء بخير.» وقال الرجل الثقيل أخيراً، بصوتٍ مكسور: «سرقتُ من شريكي. ولا أستطيع النوم منذ ثلاث سنين.»

ثم وجّه الجميع أنظارهم إلى عادل. أحسّ بالماء ينتظر تحت قدميه. قال بعد صمتٍ طويل: «أنا أهرب. ليس لأنّ المدينة فشلت معي، بل لأنني فشلت معها. وإذا ذهبت إلى مدينةٍ أخرى فلن أتغيّر. سأحمل نفسي معي أينما ذهبت.»

لم يعلّق أحد. لكنّ العبّارة تحرّكت من جديد، ببطءٍ هادئ، كمن قبل اعترافاً.

وبينما كانت العبّارة تقترب من الضفّة الأخرى، لاحظ عادل أنّ الركّاب جميعاً قد تغيّرت وجوههم قليلاً. المرأة بدت أصغر بعشر سنين، والجندي أقلّ توتراً، والرجل الثقيل صار يتنفّس كمن أزاح حجراً عن صدره. أما هو، فلمس وجهه بيده ليتأكد أنّه ما يزال هو، ثم أدرك أنّ التغيير الوحيد كان في الطريقة التي يقف بها: بظهرٍ مستقيمٍ، لأوّل مرّة منذ زمنٍ طويل.

عند الشاطئ الآخر، وقفوا على الرصيف. نزل الجندي أولاً وتوجّه نحو بيتٍ صغير فيه نورٌ في نافذته. نزلت المرأة، والعصفور على كتفها. ونزل الرجل الثقيل ومشى ناحية مركز الشرطة. أما عادل، فلم يعرف إلى أين يذهب. قال للملّاح: «وأنا؟»

أشار العجوز إلى قريةٍ في البعيد، فيها أضواء قليلة: «هناك مدرسةٌ ليس فيها معلّم. وفيها غرفةٌ فوق الفصل. كنت أراك طوال العمر تحبّ أن تعلّم الأطفال، لكنّك خفت من أن تفشل.»

«كيف تعرف؟»

«كلّ ما يخافه الناس مكتوبٌ على جبينهم، لمن يعبر بهم ليلاً.»

أخذ عادل حقيبته. وقبل أن يبتعد، قال: «وأنت؟ من أنت؟»

ابتسم العجوز وهو يفكّ الحبل: «ملّاحٌ كان مثلك. جلستُ في مثل مكانك، وأنقذتني عبّارةٌ مثل هذه. ثم ورثتُ الدفّة.»

مشى عادل في الفجر نحو القرية. وجد المدرسة، ووجد الغرفة، وكانت مفتوحة. وبعد أسبوعٍ كان يعلّم عشرين طفلاً الحروف، يكتبها على لوحٍ أسود بطبشورٍ ناعم. ولم يتذكّر أنّ في جيبه ثمن تذكرة قطار إلا بعد شهور، فابتسم وأخرجها، ووضعها في كتابٍ كعلامة صفحة.

وكان يتذكّر أحياناً الملّاح العجوز، وهو يعلّم أولاده الصغار كيف يكتبون كلمة «غداً». يقول لهم: «الغد ليس شاطئاً بعيداً، إنه ما نفعله الليلة.» ولا يفهمون، فيبتسم، لأنه ما فهم بدوره إلا بعد أن ركب العبّارة.

وفي ليالي الشتاء الطويلة، حين يقف مترددٌ على ضفّة النهر، تنظر القرية الصغيرة إلى الماء، فترى فانوسين أحمرين يقتربان بصمتٍ

من بين الضباب، فيقول أهلها لبعضهم: «عبّارةٌ جديدة تعبر الليلة. فليكن الله في عون من عليها.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app